الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة القِدَم

بعد أن ذكرنا الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة الوجود، ننتقل إلى الكلام عن الأسماء الحُسْنَى المتعلّقة بصفة القِدَم.

لما كانت الحوادِثُ ذاتَ بَداءَة تُحْوِجُها إلى سَبَب يوجِدُها فاللَّهُ سُبْحَانَهُ لا بداءَة له، جاء في المأثور من أسماء اللَّهِ الحسنى. (الأول، النور، الظاهر). ولا شيء قبله ومعه، أي إنه لا ابتداء لوجودُه.

77 ــ الأَوّلُ

قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: 3]. وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم في موضع واحد فقط، هو هذا. وثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلمٌ في كتاب الذكر والدعاء مِن «صحيحه»، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713)، عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يأمُرُنا إذا أخذنا مَضْجَعَنا أَنْ نَقُولَ: «**اللَّهُمَّ أنتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بعدك شَيْءٌ...**». وأخرج البخاري في كتاب بدء الخلق من «صحيحه»، أن النبي ﷺ قال: «**كان اللَّهِ ولم يكن شيءٌ غيرَه**».

أقوال العلماء

قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى» (الأَوَّلُ يكون أوّلاً بالإضافة إلى شيء، وإذا نظرت إلى ترتيب الوجود، ولاحظتَ سلسلة المَوْجُوداتِ المُرَتَّبَة، فاللَّهُ تعالى بالإضافة إليها أوّل، إذْ المَوْجُودات كلُّها استفادَت الوُجودَ منه، وأما هو فمَوْجُودٌ بذاته، وما استفاد الوُجُودَ مِن غيرِهِ. فمنه المبْدَأ أولاً).

تعدّد معاني القِدَم

يُطلق القِدَم ويُراد به ثلاثة معاني: القِدَم الزماني، والإضافي، والذاتي.

أما القِدَم الزماني: فهو طولُ المدّة، يُقال: هٰذا بِناءٌ قديم، أي مضى عليه زمان طويل منذ وجوده، وهذا المعنى لا يليق إطلاقُه على الخالق سبحانه؛ لأنه خالق الزمان، ووجوده ثابت قبل أن يخلق الزمان، فمحال أن يجري عليه الزمان.

وأما القِدَمُ الإضافيّ: فهو سبق شيءٍ في الوجود لشيء آخر، ومثاله قِدَم الأب بالنسبة للابن، ولا يجوز إطلاقه على اللَّهِ أيضاً لقياسه على مخلوقاته.

وأما المعنى الذي يجوز إطلاقه على الله فهو القِدَمُ الذاتي، أي عدم افتتاح الوجود، أو عدم الأولية للوجود، فهو سبحانه قديم ليس قبله شيء ولا ابتداء لوجوده، أزلي.

موقف العقل من هٰذا الاسم

إن جميعَ مدارك الإنسان إنما هي وليدة تَصَوُّراتِه، والتصوّرات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ أوجدها الله للمعرفة داخل الإنسان يُطِلُّ منها على الحياة الخارجية عنه، وهي الحواس الخمس، وهٰذه الحواسّ التي هي مداخل المعرفة محدودة عند الإنسان، كمّاً وكيفاً.

فمن حيث الكمّ هي خمس فقط ولم يزوّده اللَّهِ بأجهزة أخرى، كجهاز قياس الحرارة مثلاً (الترمومتر)، أو جهاز قياس الضغط الجوّي، أو جهاز اكتشاف الماء في باطن الأرض، أو المعادن كالذهب مثلاً.

ومن حيث الكيف، فإن أجهزة الحسّ مَحْدُودةٌ بحدود معينة لا تحسّ إلا ضمنها، ولا يمكنها الإحساس خارج هٰذه الحدود، فالعَيْنُ مثلاً لا تبصر في الظلام، ويلزمها الضوء للمكان حتى تبصره، كذلك فهناك حدود للأجسام حتى تبصرها، فهي مثلاً لا تبصر الجراثيم والميكروبات والأشياء المتناهية في الصغر، والتي ترى بالمجاهر (المكروسكوبات)، وأيضاً فهي تبصر الأشياء القريبة، وكلما ابتعد المرئي عنها تصاغر حتى لا تعود تراه، بينما يمكن رؤيته بالمناظير الكبيرة

(التلسكوبات) المُقَرِّبة للأشياء البعيدة، أو (المناظير) العسكرية فحاسة الإبصار إذن محدودة جداً عند الإنسان.

وكذلك الأُذن، فهي تسمع بحدود ضيّقة جداً الأصوات من حولها، ولكن أثبت العلم أن هناك في الجوّ ملايين الأصوات لا تلتقطها أذنُ الإنسان، ويمكن لأجهزة (اللاسلكي)، أو (الراديو) التقاطها، فحاسة السمع أيضاً محدودة جداً عند الإنسان، وقس على هذا سائر الحواسّ الخمس عند الإنسان.

وكذلك عقل الإنسان محدود، بحدود ما تقدمه له الحواس، وأيضاً فهو لا يُدرك الأشياء، إلا إذا عرف أبعادها الزمانية والمكانية، فإذا أراد التعرّف على شيء وجب أن يتصوّر له زماناً ومكاناً وشكلاً، وبدون هذه الأبعاد لا يستطيع أن يدرك الأشياء.

فالطاقة الفكرية في الإنسان محدودة إذن، والإنسان لا يعقل من المجرّدات، إلّا ما كان له مقاييس ونماذج حِسِّيَّة في ذهنه، فما لم يَسْبِق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس، فإن مِن المُحال بالنسبة إليه أن يتصوّره ويدركه.

وعلى هذا فإن مِن السهل علينا أن نفهم صفة الرحمة في ذات اللَّهِ تعالى؛ لأننا نحتفظ في ذهننا بتصوّرات لمعانيها وآثارها، ومِن السهل علينا أن نتصوّر له صفة العدل؛ لأنها تعود إلى مَعانٍ توجد في ذهننا صُوَر لها، وإن كانت هٰذه الصفات مختلفة في ذاته تعالى عنها في ذوات المخلوقين.

أما إذا قيل: إنه أَزَلِيّ أبدي لا يَحُدُّه زمان ولا مكان، فهذا ما لا يستطيع الإنسان أن يتخيّله؛ لأنه لا يحتفظ في ذهنه بأي معنى لهذه الصفة لكونها صفة خاصّة بذاته تعالى، فإذا قيل له: إن الله سبحانه وتعالى قديمٌ لا أوّل له، لا يستطيع أن يتخيّل ذلك؛ لأنه معنى طارىء على مخيّلته لم تسبقه رؤية لحقيقته أو ممارسة له بذاته.

غير أن من السهل أن نؤمِن بقِدَم الله تعالى وبقائِه، إيماناً جازماً بعد أن ثبت ذلك بالأدلّة القاطعة، وإن كلّت عقولنا عن تصوّر هٰذا المعنى وإدراكه، ذلك لأن من الحقائق المتّفق عليها عند أولي العقل والتفكير السديد، أن ما يجهله العقلُ لا

يعني أنه معدوم وأن ما لا يستطيع البشرُ إدراكَه والوقوفَ على حقيقة أمره لا يَصْدُقُ عليه أنه غير مَوْجود؛ أي إن هناك فرقاً بين أن يحكمَ العَقلُ باستحالة شيء وبين أن يُعلن عجزه عن فهم شيء، فالتصوّر غير التعقّل، والعِبْرَةُ لقُدرة العَقل على التَعقّل، ولا عِبْرَة لعجزه عن التصوّر.

إن الحَيْرَةَ أمام الغيبات ضرورة ناتجة عن كون العقل مَحْدوداً، وكيف يمكن للمحدود أن يحيط بالكامل المُطلَق غير المحدود، ولو أمكن هٰذا لكان العقلُ أكبرَ إحاطةً بالأَشياءِ مِن إحاطَةِ خالقها بها، وذلك غير معقول؛ لأنه يقتضي عدمَ ألوهية الخالق، تلك هي حقيقة الإيمان بالغيب الذي أمر اللَّهُ تعالى عباده به، وهو أن يؤمنوا بما غاب عن محسوساتهم وعقولهم مِن حيث التحديد والتكييف لهٰذا الغيب، وينقادوا خاضعين لأمر الله ويستسلموا بوجدانهم ومشاعرهم لله، فيُريحوا أنفسهم مِن عناء التكلّف بما لا يقوى العقلُ البَشَرِيّ على إدراكه.